تونس قبل دخول العثمانيين :

كانت تونس قبل دخول العثمانيين إليها تخضع لحكم الحفصيين متمثلين في ثلاثة سلاطين هم :

أبو عبد الله محمد الخامس 1494-1526 و الحسن بن محمد الخامس 1526-1543 و أحمد بن الحسن 1543-1569 ، وقد كانت فترة أبو عبد الله محمد أكثر الفترات هدوء غير أن التركيبة الاجتماعية لم تسمح له بأن يقيم دولة قوية تجابه الاعتداءات الأجنبية المتكررة على سواحل البلاد الأمر الذي دفعه الى التخلي عن الجهاد غير أنه كان معجبا بخير الدين و عروج فسمح لهما باتخاذ جزيرة جربة مقرا لقيادتهم واقتسام الغنائم معهما وبذلك يضمن لبلاده عائدا دوريا يمكنه من تسديد مختلف المصاريف دون أن يفرض الضرائب على السكان هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن وجود هذين المجاهدين على الساحل التونسي يقلل من سخط الأهالي الذين لم يكونوا راضين بالتوسع الاستعماري الذي تتعرض له سواحلهم بل إن وجود جربة بيد المجاهدين امر يجعل أبا عبد الله قادرا على القول بأنه يساهم في محاربة الغزاة ، ولما وصل الحسن الابن للسلطة خلفا لوالده 1526 دخل في حروب مع اخوته حيث هرب أخاه الرشيد الى الاستانه يستنجد بالسلطان العثماني سليمان القانوني وحتى يتمكن الحسن من إرضاء الأهالي ألغى جميع أنواع الضرائب التي أرهقت كاهلهم وتطبيق النظام السائد في الجزائر غير انه تراجع عن هذه الإجراءات خشية ان يستفيد منها اعداؤه ويثورون عليه من جديد وقد أثرت هذه السياسة الارتجالية تأثيرا شديدا على السكان فاشتد سخطهم عليه الأمر الذي تولدت عنه كثير من الثورات والتمردات التي أغرقت البلاد في بحر من الفوضى وعدم الاستقرار وهو ما دفع الحسن الى التقرب من الاسبان حفاظا على عرشه لما فر الحسن الى أوروبا استنجد بشرلكان (شارل الخامس) الذي أنجده بالقيام بحملة عسكرية والدخول الى تونس في 18 اوت 1535 وهكذا أعاد الحسن الى الحكم مرة أخرى وبقي شارل الخامس معه لفترة قصيرة وارتحل تاركا وراءه حامية عسكرية بحلق الوادي تسهر على تطبيق المعاهدة التي ابرمت مع عميله الحسن الحفصي ومن أهم ما جاء فيها :

- دخول تونس تحت حماية شارل الخامس الامبراطور لمدة 39 سنة .
- اطلاق جميع الاسرى المسيحيين وتعهد الحسن بمنع الجهاد البحري ودفع ضريبة سنوية للإمبراطور .
- السماح للإسبان بالإقامة في تونس مع الترخيص لهم باقتناء الأملاك وانشاء الكنائس حيثما شاءوا مع تعهد الحسن بعدم اسناد المناصب الحساسة للأندلسيين (حتى لا يضايقهم) .
- تسليم حلق الوادي وبنزرت الى الجيش الاسباني يترك بهما حاميه يمكن للحسن الاستنجاد بهما عند الحاجة
- السماح لأفراد الجيش الاسباني بنهب الأهالي وتقتيلهم لمدة ثلاثة أيام متتالية وقد نتج عن تطبيق هذا البند الأخير تذبيح اكثر من ثلث السكان وتشريد ثلث آخر كما نتج عنه ازدياد سخط الأهالي الذين راحوا يستعدون للثورة فاندلعت ثورة سوسة ثم تلتها ثورة القيروان وحاول الحسن ان يخمد هذه الثورات بالاستعانة بالحامية الاسبانية لكنه انهزم شر هزيمة وفر

الى أوروبا فخلفه ابنه احمد العائد من مدينة عنابة بتشجيع من الأهالي وذلك حتى لا تقع البلاد فريسة بيد الاسبان وحتى تبقى الاسرة الحفصية في الحكم ومن أهم ما قام به :

– التقرب من الثوار وطلب منهم المساعدة للقضاء على الفوضى والاضطراب .

– اتخاذ التدابير اللازمة للحد من النفوذ الاسباني في البلاد .

– طلب المساعدة من الجزائر .

غير أن عدم توفره على أسطول بحري وبحارة لهم الخبرة جعله يهتم بتحسين الأوضاع في مناطق نفوذه دون أن يبادر لتحرير الموانئ المحتلة ، وفي هذه الاثناء ظهر في حوض المتوسط المجاهد العثماني درغوث الذي كان واليا على طرابلس 1556 والذي بادر بتحرير الموانئ التونسية ودخل مدينة القيروان 1558 ولما شعر فيليب الثاني ملك اسبانيا بالخطر على مصالح بلاده في تونس تحالف مع فرسان مالطا ونظم حملة عسكرية على جزيرة جربة 1559 ولما نزلت الجيوش المتحالفة بأرض الجزيرة طوقها درغوث وشن عليها هجوما كاسحا انتهى بإغراق جميع المراكب الاسبانية واسر خمسة آلاف عسكري وقتل الباقي ومات درغوث وهو يحاصر مالطا عام 1565 ولما رأى الأهالي عجز حاكمهم أحمد على انقاذ البلاد طلبوا من العلج علي حاكم الجزائر التدخل فقاد بنفسه جيوش غفيرة سنة 1569 وطرد أحمد الذي لجا الى الحامية الاسبانية بحلق الوادي فاستبدله بأخيه رمضان الذي نصب واليا على تونس وقد اشترط فليب الثاني على أحمد نفس الشروط التي أمضى عليها والده 1535 غير أنه رفض وفضل الابتعاد والنفي (نفى نفسه) الى باليرمو في صقلية وبذلك كانت نهاية الأسرة الحفصية في تونس التي أصبحت ايالة عثمانية .

<u>التطور السياسي لتونس في العصر الحديث</u> :

تعرضت تونس مع بداية العصور الحديثة الى حملات أوروبية أوقعتها في شباك النصارى وقد أسهم ضعف السلطة الحفصية وعدم القدرة على التصدي للغزاة في ضعف البلاد وتأخرها وكان الصراع محتدما على تونس خلال القرن 16 بين الاسبان الذين يسيطرون على الحوض الغربي للمتوسط والعثمانيون الذين يهيمنون على الحوض الشرقي فبعد أن اخضع شارلكان تونس لنفوذه 1535 أمر ببناء حصن بحلق الوادي يضمن به بقاء الجيوش الاسبانية بإفريقيا ما يقارب 40 سنة وبعد أن خلع الاتراك الحسن الحفصي أعاده الاسبان الى عرشه وأخضعوه لنفوذهم ، وبذلك صارت تونس محل صراع بين العثمانيين والاسبان ولم يكن أحمد بن الحسن يومها قادرا على تغيير هذا الوضع إلا أن ظهر القائد العثماني درغوث وانتصر على الاسبان واستولى على القطر التونسي ، وفي سنة 1569 دخلت الجيوش التركية يقودها العلج علي والي الجزائر وطرد أحمد الحفصي واستبدله بأخيه رمضان " لجا السلطان احمد بن الحسن الى الحامية الاسبانية بحلق الوادي واشترط عليه الاسبان بنفس الشروط التي اشترطت على والده عام 1535 غير انه رفض وفضل البقاء ب المنفى " وبانتصار المسيحين على العثمانيين في معركة لبانت 1571 تمكن شقيق الملك اسبانيا دان جوان النمساوي من الاستيلاء على تونس 1573 وأقام بها حكما مشتركا اسبانيا حفصيا لمدة 10 اشهر الى أن قدم الاسطول العثماني بقيادة

سنان باشا عام 1574 واسترجع تونس وحلق الواد من الاسبان وبذلك وضع حدا للإسبان بتونس وللسلطة الحفصية وأصبحت تونس إيالة عثمانية يحكمها الاتراك باسم السلطان العثماني.

بداية الحكم العثماني في تونس :

بعدما تمكن الاسطول العثماني من تحرير تونس عمد العلج على حاكم الجزائر وسنان باشا الى تنظيم إدارة البلاد فجعلها تابعة لحكومة الجزائر 1574_1577 ثم قرر السلطان العثماني في عام 1587 جعل تونس ولاية عثمانية تابعة لإسطنبول يديرها باشا لفترة غير محددة يستعين بالحامية الانكشارية لاستتباب الأمن والجهاد البحري ومجلس الديوان الذي يقدم له المشورة ، وقد تميزت بداية الحكم العثماني لتونس بالهدوء والاستقرار نظمت فيها إدارة البلاد اعتمادا على النظم الحفصية وفرض الضرائب على كافة المناطق حيث كان حريصا على جمع الضرائب التي تعد المورد الرئيسي للايالة وقد كان هذا السلوك لا يعجب السكان وخاصة القبائل التي لم ترتح لهذه السلطة الجديدة كما ازداد نفوذ الجيش التركي يوما بعد يوم وأصبح ينافس سلطة الباشا حيث اغتنم الجنود الانكشارية الازمة السياسية والمالية التي كانت تمر بها الدولة العثمانية وتذمر السكان من السياسة العثمانية وعمدوا للاستيلاء على السلطة وذلك بتنظيم انقلاب عسكري على نظام الباشوات وعين الديوان أحد أعضائه قائدا على الايالة يلقب بالداي إبراهيم روديسلي الذي انهى مل ارتباط مع حاكم الجزائر وأعلن تبعيته المباشرة للخليفة العثماني وقد تميزت فترة حكم الدايات بالازدهار الاقتصادي والعمراني والعسكري كما قسموا البلاد الى بايلكات على راس كل منها باي يفرض سلطته المباشرة على القبائل ازدهرت في عهدهم القرصنة البحرية عقدوا معاهدات مع القوى الدولية خاصة مع فرنسا ودول المدن بايطاليا اهتموا بتطوير وتوسيع التجارة حيث أصبحت تونس الوسيط التجاري بين افريقيا السوداء وسواحل البحر المتوسط كما ضبطوا الحدود مع إيالتي الجزائر وطرابلس ومن أشهر الدايات عثمان داي 1598_1610 ، أسطا مراد 1637_1640، يوسف داي 1610_1637 ، أحمد خوجة 1640_1647 .

1- حكم البايات :

كان الأسطا مراد قائدا للبحرية وله خبرة كبيرة في القرصنة تقوت شوكته ومكنه نفوذه القوي في عهد الداي يوسف 1610_1637 من الحصول على لقب الباشا من لدن السلطان العثماني ومن ثم حكم البلاد بعد وفاة الداي 1637_1640 وبوفاته آل أمر الحكم والنفوذ الى البايات وتوطدت سلطتهم من خلال الاسرتين المرادية والحسينية اذ تعاقب ابناؤهما على حكم تونس بصفة وراثية مستقلة عن الخلافة العثمانية الى غاية قيام الجمهورية التونسية 1957

عهد الاسرة المرادية 1640 _ 1702 .

قسم دايات تونس البلاد الى أقاليم (بايلكات) على راس كل منها باي يتمتع بسلطات واسعة في اقليمه حتى أنه اصبح يورث منصبه لأبنائه ومن هؤلاء مراد باي او ما يعرف بمراد كورسو ، من هو مراد كورسو : هو مملوك من اصل كورسيكي أسر صغيرا وجيء به الى تونس فاشتراه رمضان باي و رباه ودربه على قيادة المحلة وبعد موت سيده وجد

نفسه بايا فخطط للوصول الى السلطة معتمدا على دعم القبائل ، و قد عمل المراديون على استتباب الامن والتحكم في جميع الأقاليم فأنشأوا جيشا من الأهالي (زواوة _ صباحية) خارج اطار العسكر التركي بل منافس له كما راجعوا النظام الجبائي ووسعوه ليشمل قسما كبيرا من السكان ونظرا لما كان من الإمكانات العسكرية والمالية والحكم المطلق على البوادي فان الباي المراديأ منافسا للداي الذي ينحصر نفوذه في العاصمة حيث توجد الحامية التركية وأنشأ ادارة بباردو غير بعيدة على الداي وبالتالي افلت من طائلة حكم الداي وضغط الانكشارية وحقق كثير من المنجزات فشيد المؤسسات الخيرية لكسب قلوب الأهالي وفي عهد ابنه مراد الثاني 1666_1675 تطور الوضع وتفوق المراديون وقادوا حملة عسكرية باتجاه العاصمة وشتتوا جند الداي في جوان 1673 لينتصر بذلك النظام الملكي المرادي بلا منازع عن النظام التركي الذي كانت في ظله فئة أجنبية تنعم بجميع الامتيازات وقد اعتمد في الوصول الى الحكم على اعلان بيغته التركية لكسب السلطان العثماني تقرب من الأهالي لإعانته في الوصول الى الحكم وبوفاة مراد الثاني (مراد بن حمودة) 1675 دخل ابناءه في نزاع على السلطة لمدة عشر سنوات انتهى بانتصار محمد باي 1681 حيث استقر الوضع ثم عمت الفوضى من جديد اثر تدخل اتراك الجزائر لإعادة تنصيب الحزب التركي 1694_1995 وبعد ثورة عارمة الت السلطة لمراد الثالث 1699_1702 الذي جر الى الدخول في حرب من الجزائر فتخلى عنه قسم من العسكر المحلي فهزم وأسر وسرعان ما انهار نظامه في جويلية 1705 ليؤول الحكم الى حسين بن علي مؤسس الاسرة الحسينية (بتدخل الجزائر)

2-عهد الاسرة الحسينية 1705_1881 :

على اثر الاضطرابات التي عرفتها تونس في اخر أيام الحكم المرادي تدخل اعيان مدينة تونس لاقتراح حسين بن علي دايا على تونس واستطاع ان يحقق الامن والاستقرار لعقدين من الزمن وتمكن من توريث الحكم لأسرته التي حكمت البلاد الى غاية اعلان الجمهورية التونسية 1957 بعد عقدين من الاستقرار عرفت البلاد اضطرابات سياسية 1728_1756 وذلك بسبب قيام حسين بن علي بنزع ابن أخيه علي باشا من ولاية العهد وتعويضه بأحد أبنائه فلجأ علي باشا الى الجزائر واستعان بها في وصوله الى السلطة وتميزت فترة حكمه 1740_1756 بسلوكاته الدموية وتشدده في جمع الضرائب واحتكار التجارة وحاول ان يتحرر من المعاهدات المبرمة بين أسلافه والدول الأوروبية واضطربت الأحوال في أواخر عهده وتمكن محمد وعلي أبناء الحسين من العودة الى العرش لمساعدة الجزائر عام 1756 لقاء جزية سنوية ظل بايات تونس يؤدونها الى الجزائر الى غاية 1806 ، وبدا تدخل الجزائر في شؤون التونسيين واضحا مما أثار حفيظة التونسيين ، ويعتبر حمودة باشا من أشهر بايات تونس 1782_1814 اعتمد على شخصيته القوية والعناصر المحلية في إعادة الاستقرار لتونس جند الجيش ودربه وسلحه واهتم بالتجارة ووضع حدا لأطماع الدول الأوروبية مع مطلع القرن التاسع عشر الذي عرف اضطرابات سياسية واقتصادية و أدى الى انفتاح الدولة على التجارة الأوروبية واقتراض المال الى رهن مصيرها وازداد التنافس حده بين إنجلترا وفرنسا للسيطرة على تونس خاصة بعد احتلال الجزائر وأمام ذلك اهتم الباي أحمد 1837_1855 بالإصلاحات الحديثة متأثرا بإصلاحات محمد علي بمصر فأنشأ مدارس حربية وأخرى مدنية

واقتنى السفن والمعدات الحربية ، واستقدم المستشاريين العسكريين الفرنسيين والانجليز لتدريس الجيش وقد بدا ان الباي انفق أموالا طائلة مقابل أسلحة فاسدة وادت سياسة اقتراض المال المشبوهة في عهد الوزير مصطفى خزندار 1837 _1873 الى أزمة مالية حاده أثارت الاضطراب في البلاد ودفعت إنجلترا وفرنسا الى فرض الإصلاحات التي تراها مناسبة والرقابة المالية على الدولة 1869 وادت سياسة زيادة الضرائب الى ثورة شعبية 1864 وبذل الباي محمد الصادق جهودا للقيام بإصلاحات تولاها الوزير خير الدين (إصلاحات دستورية وتعليمية اقتصادية) غير ان سياسته هذه واجهتها صعوبات جمة واعترض عليها أصحاب النفوذ لتؤول الى الفشل ويهيمن الرأسماليون الأجانب على ثروات البلاد وازدادت التهديدات الأجنبية من الطامعين في ضم تونس لنفوذهم وتقرر في مؤتمر برلين عام 1878 إعطاء تونس لفرنسا والتي فرضت عليها حمايتها 1881.

وخلاصة القول لقد حاول بايات الأسرة الحسينية بناء الدولة التونسية بأسس حديثة اعتمادا على العنصر الوطني وهو ما أعطى تونس ميولا قومية مبكرة وقد حاول بعض البايات في ظل استقرار الوضع السياسي الاخذ بأسباب التقدم وعصرنة البلاد ولكن الظروف الداخلية والخارجية القاهرة وطبيعة نظام الحكم كانت تنخر جسم الدولة وتؤول بها للوقوع تحت الهيمنة الاستعمارية .